أثر الوسطية في تطور مناهج التعليم وأصناف العلوم عند العلماء خلال العصر المريني

بقلم
أ. هشام بن سالم
ماجستير ـ وباحث في الدكتوراه بقسم التاريخ ـ جامعة الجزائر 2
Hichambensalem88@gmail.com

ملخص البحث

كان التعليم وما زال جوهر الحياة البشرية وسر تطور الأمم ورقيها وسبب المدنية والحضارة الإنسانية، لذا فإن العلماء في العصر المريني ساهموا بشكل جدي في وضع منهج واضح يكفل السير الحسن لنظام التعليم ومناهجه ومراحله وطرقه، فاعتمدوا الوسطية كمنهج متكامل يساهم في إبراز الأبعاد الحضارية للتعليم من خلال تطوير مناهجه وفق استراتيجية تكفل إقرار المراحل التي يمر بها المتعلم وكذا العلوم التي يتعلمها في كل مرحلة والتدرج في أخذ العلوم حتى يصل إلى المرحلة الأخيرة التي يجاز فيها، وأنواع المؤسسات التي يدرس فيها ابتداء من الكتاتيب والمساجد فالزوايا وأخيرا المدارس، لذا وضعوا لكل مرحلة منهجا تعليميا يناسبها، وعليه سنحاول تسليط الضوء على أثر الوسطية في تطور مناهج التعليم وأصناف العلوم عند العلماء في العصر المريني، وإلى أي مدى ساهمت الوسطية عند العلماء في تخرج عدد من الطلبة النابغين الذين أثروا في الحياة العلمية بإقرار الوسطية في المجتمع المغربي في العصر الإسلامي سواء على مستوى العقيدة والمذهب والفكر والسلوك.

المقدمة:

إن دراسة الوسطية في أي عصر من العصور، هو بحث في الحقيقة مهم للغاية، يجعلنا نتلمس جوهر التاريخ الإسلامي الذي لا يزال في مرحلة إعادة بعثه وانتشاله من ركام الماضي، واستقراء أحداثه وفق منهج متكامل، لذا اتجهت الدراسات الأكاديمية في الآونة الأخيرة إلى كشف الغطاء عن مواضيع أكثر عمقا، بطرق التاريخ الحضاري الذي يتجاوز التاريخ الفردي البطولي-أي السياسي-، وفي مقدمة هذه المواضيع موضوع "الوسطية" الذي يشكل صمام الأمان في الدين الإسلامي شريعة ومعاملات، إذ غير خاف عنا أن الوسطية هي من أبرز التوجهات الفكرية إشراقا وتألقا، وتعبيرا عن العمق الحضاري للأمم والشعوب، وتجسيدا لجهود العلماء المسلمين في خدمة العلم والمعرفة والمجتمع، وإقرارا بحضورها الحاسم في صنع فعاليات التاريخ الإسلامي خاصة وتاريخ الإنسانية عامة.

هذه هي الوسطية التي نسعى لاكتشافها والتعامل الجاد مع أدوارها، محاولين من خلال ذلك البحث عن الذات، والعثور عن الهوية الضائعة في هذا العالم، والتجذر في مرجعيتنا، وتعميق التواصل بين ماضينا التليد وحاضرنا المعاش، وتلمس الملامح والخصوصيات، راجين استحضار ذلك التألق والتطور الحضاري الذي وصلته أمتنا عبر تاريخها المشرق الذي أنار الدنيا وأخرجها من ظلمات الجهل.

لقد أضحى الوسطية حضورا كبيرا وتواجدا فعليا في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، ازداد وتوسع إلى حد كبير جعلها تؤثر على جميع مناحي الحياة، في الأحداث والوقائع التي عرفها التاريخ الإسلامي، فهي تشكل أحد الأقطاب الرئيسية المؤثرة، بل أزيد وأقول أن الوسطية هي منهاج الأمة الذي بدونه لا يمكن أن تستمر، فبها يستقيم حالها ويشتد عودها، وتنتصر على أعدائها، فهي زادها وسراجها، الذي يستضيء به أفرادها ويستدلون به في حياتهم وفي طريقهم وينتفعون بها.

إن بحثنا يندرج ضمن الدراسات التركيبية عن جانب أساسي في تاريخ المغرب الإسلامي الفكري والحضاري، بتسليط الضوء على إحدى دول هذه البلاد، أي الدولة المرينية، من خلال دراسة موضوع أثر الوسطية على تطور مناهج التعليم وأصناف العلوم عند العلماء خلال العصر المريني، وقد حرصت هذه الورقة البحثية على تناوله من منظور مركب:

– منظور إنساني شمولي يمد نطاق اهتمامه ليطال كل ما وصل إليه العلماء في العصر المريني، من مناهج وطرائق وتقنيات في التعليم.

– منظور تفاعلي جدلي يلاحظ أثر المتغيرات البيئية المادية منها والإنسانية الاجتماعية في تشكيل الدافعية نحو توظيف مبدأ الوسطية في مناهج التعليم وأنواع العلوم.

– منظور منهجي يبرز القيمة الفكرية والأهمية الحضارية لأثر الوسطية على تطور مناهج التعليم وأصناف العلوم عند علماء العصر المريني.

ويعد أثر الوسطية على تطور مناهج التعليم وأصناف العلوم عند العلماء في العصر المريني، مبحثا خصبا استرعى اهتمام الباحثين والدارسين، إما في سياق حديثهم عن تاريخ المرينيين بشكل عام، أو في إطار دراسات أكاديمية تطرقت لدور هذه الشريحة في العصر المريني، من ذلك الدراسة التي قام بها الدكتور أحمد بوزيدي الموسومة ب:"العلماء والسلطة والمجتمع بالمغرب المريني" وهي أطروحة دكتوراه، حيث درس فيها علاقة العلماء بالسلطة المرينية والمجتمع المغربي من تأسيس هذه الدولةسنة1269م إلى سقوطها سنة1465م، حاول من خلال هذه الدراسة إماطة اللثام عن جهود العلماء في قيام الدولة المرينية، وكذلك في سقوطها، وكذلك تسليط الضوء على مناهج التعليم وأصناف العلوم وأثر الوسطية عند العلماء وأبرز وأهم فعاليات العلماء في المجتمع المغربي وإسهاماتهم في إشاعة العلم والمعارف، ومشاركتهم أيضا في وظائف الدولة المرينية سواء الوظائف الدينية أو السلطانية.

ولمعالجة هذا الموضوع نطرح الإشكالية الآتية: كيف وظف العلماء مبدأ الوسطية في تطوير مناهج التعليم

وأصناف العلوم النقلية والعقلية؟

وتنبثق عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات تتمحور حول ما يلي:

- ما هي طبيعة الوسطية؟ وكيف تجسدت؟
- ما هي جهود العلماء في تطوير نظام التعليم؟
- ما هي الأبعاد الفكرية للوسطية؟
- فيما تجلى أثر الوسطية على فكر العلماء العصر المريني؟

لقد اعتمدت هذه المحاولة الفكرية الوصفية على المنهج البنيوي وآليته التفكيكية التركيبية سواء في استقصاء أثر الوسطية أو في دراسة نظام التعليم ومناهجه، بحكم طبيعة هذا المنهج القائمة على تفكيك البنية الكلية لموضوع الدراسة إلى بنيات فرعية ومكونات جزئية لتلك البنيات، ويستند ذلك إلى الاعتقاد بأن المنهج البنيوي وآليته التفكيكية-التركيبية، ينشآن عن الجمع التفاعلي بين آليات منهجي البحث الكلاسيكيين الأساسيين" الاستقرائي والاستنباطي "في إطار منهجي واحد، اصطلح الباحثون المحدثون على تسميته "المنهج البنيوي" الذي يبدو أنه المنهج الأنسب لموضوعنا والأكثر ملائمة لمتطلباته البنائية والغائية، إلا أنَّ خصوصية هذه الورقية البحثية وطبيعتها المميزة فرضت استكمال منهجها البحثي البنيوي بمداخل بحثية تكميلية مضافة، تناسب مادة البحث لا منهجه.

وفيما يخص تقسيم الموضوع فقد بدا لي أن يتضمن دراسة شاملة لإسهام العلماء في دفع عجلة التعليم وأصناف العلوم وأثر الوسطية في ذلك، بالإضافة إلى تسليط الضوء على تأثير الوسطية على طرق التدريس المتبعة من قبل العلماء في العصر المريني، وختمته بمكانة الوسطية في دفع العلماء إلى تصنيف العلوم وأهم المقررات المعتمدة من قبلهم، وختمت الموضوع بخاتمة استخلصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وكذلك أبرز التوصيات التي خرجنا بها من خلال بحثنا في موضوع "أثر الوسطية في تطور مناهج التعليم وأصناف العلوم عند العلماء في العصر المريني".

1- الوسطية ونظام التعليم: لم تقف الشريعة الإسلامية عند إقامة شعائر الدين ومناسك الاعتقاد، ووصايا منظومة القيم والأخلاق في عالم الفرد المؤمن.. وإنما كانت إيذانا باستدعاء الدولة لتجسيد الدين والاعتقاد والقيم والأخلاق "نظما مدنية" في الاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون والعلاقات الدولية، حتى لقد جعلت من القرآن حياة تمشي على الأرض، وشمائل وسجايا في مختلف ميادين الحياة، ومن هنا قام الإسلام-لأول مرة في تاريخ الرسالات السماوية-الجوامع الخمسة التي حققت الانتماء الجامع للجماعة المؤمنة في العقيدة والشريعة والحضارة والأمة ودار الإسلام، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ الوحي ومبينه وقائد الأمة ومؤسس الدولة والحضارة ودار الإسلام، وذلك لأول مرة في تاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام[1]. فكانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم تغيرا جذريا في التمدن والتحضر صنعه الإسلام، لذلك

[1] - محمد عمارة، في فقه الحضارة الإسلامية، ط2، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2007م، ص06.

كان تميز الإسلام بالدولة الحارسة للدين والمسوسة بالدين في نفس الوقت، مما جعل الإسلام دينا وحضارة كما هو دين ودولة، وهذا الذي لم يحدث في الشرائع السابقة والأمم الماضية، فقد حكمت حياة الدول والحضارات سنن الولادة والفتوة والتراجع وموت هذه الدول والحضارات...تميزت الدولة والحضارة في الإسلام بالخلود المكتسب من الإطلاق والخلود اللذين تميزت بهما الشريعة التي أثمرت الدولة والحضارة، فجائز عليهم الضعف والتراجع، لكنهما لا يزولان ما دام الرباط قائما بينهما وبين الشريعة الخاتمة والخالدة وبالتجديد وفقه سنن التقدم والنهوض يعاودان دورات اليقظة بعد السبات ومراحل الازدهار بعد كبوات الجمود والتقليد[2].وتميزت الوسطية في النسق الفكري الإسلامي، بأنها العدل المتوازن، والتوازن العادل التي تبرأ من غلوى الإفراط والتفريط، فهي تجمع من طرفي الغلو عناصر الحق ومكونات العدل، لتكون هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، موقفا ثالثا، هو اعتدال بين تطرفين، وتوازن بين خللين، وعدل بين ظلمين وحق بين باطلين، فالوسطية في الفكر والسلوك، هي منظار الرؤية الإسلامية لكل شؤون الدين والدنيا[3].

إنَّ الأصول البدوية للمرينيين لم تؤثر على تفاعل أمرائهم مع العلم والمعرفة وتقريب العلماء عموما، ونظام التعليم بالذات كان ضمن اهتماماتهم الخاصة، حيث أدركوا أن دولتهم افتقرت إلى أسس مذهبية، ورسوخ لتقاليد تعليمية في أوساط العامة[4]، ولذا فإن نظام التعليم يعد من أهم العوامل المؤثرة في صيرورة الحركة الفكرية ودفعها إلى التقدم والتطور والازدهار، وترقية العلوم والآداب وإشاعة العلم والثقافة بين أفراد المجتمع وترقيته سلوكيا وحضاريا[5]، مما جعل الوسطية تؤدي بالتعليم لأن"...يكون دائما واجبا عقيديا وخلقيا يلتزم العالم بالقيام به طوعا ودون مقابل مشروط، امتثالا لتعاليم الإسلام التي تحث على بذل المعرفة ونشر العلم، ولم تكن له قواعد تنظيمية أو تشريعات أساسية وإنما كان يقوم على الاحترام الكبير للعلم وأهله وعلى الرغبة الصادقة بين طرفي العملية التعليمية في الأخذ والعطاء..."[6]، وعليه فإنَّ سر هذه الأمة هو التعليم حيث ارتبطت الدعوة الإسلامية بالتعليم منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد نزلت عليه أول آية تأمره بالقراءة والتعلم والمعرفة مهما كانت روافدها ومصادرها[7]، وأردفتها آيات كثيرة التي دعت المسلمين إلى الإقبال على التعليم، وعززتها الأحاديث النبوية التي جاءت في هذا السياق، مما طبع التعليم في الإسلام بالطابع الديني[8]، وضمن هذا النسق المتواتر الذي بلغ أوجه في عصر الدراسة، يبدي ابن خلدون رأيه حول التعليم

---

[2] – المرجع نفسه، ص07.

[3] – المرجع نفسه، ص35.

[4]– بوزيدي أحمد، العلماء والسلطة والمجتمع بالمغرب المريني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، شعبة التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله–ظهر المهراز–فاس، 1428ه–1429ه/2007م–2008م، ص67.

[5] – فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج2، ط1، الجزائر، موفم للنشر والتوزيع، ، 2002، ص338.

[6]–خرماش محمد، نظام التعليم بالقرويين بين القديم والحديث(قراءة في الاصطلاحات التربوية)، مجلة الحضارة الإسلامية، ع1، السنة الأولى، 1414ه/1993م، المعهد الوطني العالي للحضارة الإسلامية، وهران، ص119.

[7] – خطيف صابرة، تلمسان والسلطة الزيانية، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، ط1، 1432ه/2011م، ص258.

[8] – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

بقوله:"...كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة يفتقر إلى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل. ويدل أيضا على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به، شأن الصنائع كلها، فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من العلم، إذ لو كان من العلم لكان واحدا عند جميعهم، ألا ترى إلى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه اصطلاح المتقدمين والمتأخرين، وكذا أصول الفقه وكذا العربية؛ وكذا كل علم يتوجه إلى مطالعته، تجد الاصطلاحات في تعليمه متخالفة؛ فدل أنها صناعات في التعليم..."[9]، ونستشف من هذا الكلام أن مهنة التعليم هي سر رقي المجتمع وبزوغ حضارته، وكذلك السلطة التي تحتاج إلى كفاءات علمية لتسيير أجهزتها المختلفة، مما يمنحها الشرعية والقبول الاجتماعي[10]؛ولذلك تنبغي الإشادة بدور التعليم في الاختيارات الحاسمة للسلطة في تحكمها في حركة المجتمع وتبني تصور صحيح يمكنها من حكم البلاد حكما متميزا، والأكثر من ذلك فإن الوسطية التي انتهجها العلماء في نظام التعليم في العصر المريني جعلت منه يتوافق مع الأبعاد الحضارية التي تحققت عبر القرون الإسلامية المتعاقبة، وأضحى منهجا شاملا يهتم بالحقائق الخالدة المستمدة من الكتاب والسنة والخاصة بالإله والرسل وبجميع الأمور الغيبية وجميع المعارف والأنشطة التي تنظمها وتشرف عليها المدرسة بقصد إيصال كل متعلم إلى كماله الإنساني، بإقراره بالعبودية لله سبحانه وتعالى[11].

2-المنهج الوسطي لآداب التعليم(التدريس): لما كان شأن التعليم عظيما في المجتمع بلغ حدا كبيرا، أضحى لمجالس التعليم والتدريس والتلقين جلال وهيبة ووقار بحيث يتلقى فيها الطلاب التربية قبل التعليم، وذلك من خلال القدوة الحسنة التي تتمثل في شيوخهم ومدرسيهم؛ مما حدا بجمهور علماء التربية الإسلامية إلى الاهتمام بشكل جدي بأخلاق المدرسين والمعلمين والمربين وواجباتهم، وصفاتهم التي تنبغي أن تتجسد فيهم وخصالا يتحلونها[12]، وفق منهج وسطي يجسد الآداب التالية:1-القدوة الحسنة التي يبديها المدرس لطلابه حيث يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة، والرأي، واللفظ، وبذلك يوصل رسالته لطلابه بكل نجاح ومداومة.

2-سلامة القلب واللسان، والبعد عن مسقطات المروءة كالغيبة والنميمة والتحاسد، بالإضافة إلى النصح في جميع الأمور، والملائمة في العيش وشرف النسب والكبر في السن.

---

[9] – المقدمة، بيروت، دار الشرق العربي، 1425ه/2004م، ص393.

[10] – بوزيدي أحمد، المرجع السابق، ص69.

[11] – عبد الله بن ناجي بن علي الجهني، آداب المعلم عند الإمام بدر الدين بن جماعة في ضوء كتابه تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم دراسة تحليلية، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية المقارنة، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1423ه-1424ه، ص225.

[12] – بن خيرة نجيب، الحياة العلمية على الدويلات الإسلامية بالمشرق (خراسان وبلاد ما وراء النهر) بين القرنين الثالث والخامس الهجريين 205هـ - 432هـ/ 820م-1040م، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي (غير منشورة)، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر 2003م – 2004 ص186.

3- حسن المعاملة ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه وإفشاء السلام وإطعام الطعام وكظم الغيظ.

4-الإشفاق على المتعلمين، وأن يكون له حنو الأب وأزر الأخوة وحزم المؤدب، وضرورة التنبيه على الخطأ، وأن لا يدع من نصح المتعلم شيئا، وأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، ثم ينبهه أن الغرض من طلب العلم، الثقافة والقرب من الله دون الرياسة والمباهاة والمنافسة، وأن يهتم بأخلاق الطلبة اهتمامه بعقولهم، وأن يزجرهم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصح بالزجر إلا عند الضرورة[13].

5-أن يكون حريصا ومداوما على الاستزادة من العلم، ومجتهدا ومجدا ومواظبا على العبادة، وأن يشتغل بالجمع والتصنيف والتأليف.

6-أن لا يستكبر أو يتعالى عن الأخذ عن من هم دونه سنا أو نسبا أو منصبا.

7-أن يزرع في طلابه الرغبة في اكتساب ملكة الاجتهاد والنظر والابتعاد عن التقليد والتسليم حتى ينشأوا مستقلين بشخصياتهم[14].

8-أن لا يكون جائعا أو عطشانا أو مهموما أو غاضبا أو مضطربا أو قلقا، ولا يطيل الدرس إلى حد الملل ولا يقصره إلى درجة الإخلال بمقاصده وأهدافه، وأن يراعي في ذلك مصلحة الآخرين، وأن يجهر بصوته أكثر من اللازم، بل يعمل إسماع الحاضرين دون إزعاج.

9-ألا يفضل أحدا بمكان على الآخر بل كل من سبق لموضع فهو أولى به، هذا مع استثناء ما تدعو إليه الضرورة العلمية من جلوس العلماء والمعيدين في أمكنة خاصة[15].

10-أن يتجنب مخالطة السلطان، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك واقتضته مصلحة دينه، وأن يتخلق بالزهد في الدنيا بقدر طاقته[16].

وعلى شاكلتهم كان على الطلاب أن تتوفر فيهم الشروط التالية:

1-أن يكون طاهر القلب مستعدا لقبول العلم وحفظه، والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، وأن يكون ورعا تقيا.

2-أن يكون مقدما على طلب العلم بنية خالصة، ومغتنما شبابه في تحصيله ويقطع ما يقدر عليه من عقبات في سبيله[17].

3-أن يقنع من القوت بما تيسر، ومن اللباس ما يستر، وأن لا يكثر من الطعام الذي يذهب بقوة عقله، ولا بأس أن يروح عن نفسه بالسير والتنزه، وأن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر من ذلك.

4-المبالغة في احترام أساتذته، أي أن يكون لبقا حسن المنظر رقيق الحاشية، فلا يمشي أمامه ولا يجلس

---

[13]- الغزالي محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، الجزء1، بيروت، دار المعارف، د.ت، ص ص130-134.

[14] - المصدر نفسه، ج1، ص135-136.

[15] -بن خيرة نجيب، المرجع السابق، ص187.

[16] -ابن جماعة بدر الدين الكناني، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص15.

[17] -بن خيرة نجيب، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

مكانه ولا يفتتحه بحديث دون أن يأذن له، وأن يراعي الوقت ولا يدق الباب بل يصبر حتى يخرج، ومن توقيره توقير أولاده

ومن يتعلق به، وينبغي عليه أيضا أن يعظم من يدرس معه فمن "تعظيم العلم تعظيم الشركاء في طلب العلم"[18].

5-أن يكون مستغلا الوقت الدرس كله، ولا تفوته شاردة ولا واردة إلا كتبها بمحبرته ويقيد ما سمعه من فوائد، وما استنبطه من أفكار جديدة.

6-ينبغي لطالب العلم أن يقتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراءه، وإلا فإجارة أو إعارة ولا يشغل نفسه بالنسخ دائما، كما يستعير كتابا مع إمكان شرائه أو إجارته[19].

لقد أحدث المنهج الوسطي المجسد في آداب التعليم، أثرا تكوينيا تربويا في شخصية طالب العلم، وأضحى عاملا محفزا حقق ائتلاف العناصر الفردية في المجتمع الإسلامي، السلوكي والأخلاقي منها، المدني والديني منها، الفكري والعلمي منها، والمادي والمجرد منها، فكان ذلك الائتلاف نظاما تعليميا وتربويا راقيا أبدعه العلماء الذين تقيدوا بالمنهج الوسطي، وتلك خصيصة من خصائص الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية[20].

3-الوسطية و أوقات التعليم(التدريس): يشكل ضبط وقت الدرس أمر من الأهمية بمكان إذ يجعل الطلاب يتحرقون شوقا لتلقي الدرس، وعليه "كانت مواعيد الدروس تحدد من قبل الأساتذة، وعادة تبدأ الفترة الأولى بعد صلاة الظهر، ثم الفترة الثانية بعد صلاة العصر، وبعضهم كان يحدد بعد صلاة المغرب وآخرون كانوا يحددون بعد صلاة العشاء، وهذه تسمى بالدراسة المنتظمة، ولما كان الأساتذة يتمتعون بحرية تامة إلا وتوجد جهة رسمية أو غير رسمية تتحكم في التعليم، كان بوسع هؤلاء أن يحددوا أوقات الدروس، فهم أحرار في ذلك..."[21]، وعلى غرار ذلك كان هناك تقليد متعارف عليه ومتبع من قبل الشيوخ والطلبة على حد سواء، فبالنسبة للتلاميذ يظهر أن سن التمييز كان هو الفترة التي يبتدئ فيها الطالب بتحمل العلم، لذا كان الحرص على الحضور لمجالس العلم في وقت مبكر[22]، وعلى أية حال كان اليوم ممتلئا بالدروس حيث تصدر كبار العلماء والفقهاء والمحدثين لتلقين طلبة العلم من أول الصباح إلى غاية انقضاء صلاة العشاء، مما جعل مبدأ الوسطية عاملا مهما عند العلماء في العصر المريني لإقرار أوقات التعليم إيمانا منهم بمبدأ التدرج

---

[18]-المرجع نفسه، ص188، خرماش محمد، المرجع السابق، ص153.

[19] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[20] -محمد عمارة، المرجع السابق، ص108.

[22]-منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، الرياض، دار المريخ، 1981م، ص61.

[23]-الصمدي خالد، مجالس الحديث بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري5-مجلة الحضارة الإسلامية، العدد01، 1993م، المعهد الوطني العالي للحضارة الإسلامية، وهران، ص152.

ومراعاة فئات المجتمع، وكذلك من أجل المحافظة على أوقات الصلوات الخمسة ولكي تعم الفائدة الجميع بدون استثناء، ولقد شكلت أوقات التعليم منظومة القيم التي جعلت الإنسان في الإسلام على يقين أثناء قيامه بدوره الفعال في حضارة الإسلام بأنَّ الحياة كلها لله، مما دفع العلماء إلى اعتبار العلوم والصناعات فروض كفاية وفي دراستها عبادة لله تعالى[23]، والضابط في ذلك هو الوقت لذا انتهجوا مبدأ الوسطية في تهيئة وترتيب أوقات التعليم على حسب الأعمار والفئات والعلوم والمقررات والمناهج المتبعة.

4-دور الوسطية في تنظيم مراحل التعليم(التدريس): يعتبر نظام التعليم الإسلامي أول من أقر مراحل التعليم المتكونة من الطور الابتدائي والطور الثانوي والطور العالي، وذلك وفق تناسق مميز يضمن الانتقال المباشر من طور إلى طور، مع تداخل ملحوظ بين هذه الأطوار في النواحي التي لا توجد فيها مدارس، وجامعات متخصصة[24].

-المرحلة الابتدائية: تعد المرحلة الأولى من التعليم ذات بعد خاص في ميزان المجتمع الإسلامي، حيث بها تتشكل الملامح العريضة لشخصية التلميذ، و بها يحضر للانتقال إلى المرحلة الثانية، فكان التلاميذ يحفظون القرآن الكريم وبعض مبادئ اللغة والخط والحساب[25]، ويتم ذلك في الكتاتيب عادة والزوايا والمساجد[26]، ولأهمية هذه المرحلة كان المدرسون شديدي الحرص على تحفيظ القرآن الكريم للصبيان، وتعليمه الهجاء، والشكل والخط الحسن، والقراءة الحسنة، ثم يتفقدون حفظهم للقرآن الكريم في أيام معينة، كعشية يوم الأربعاء والخميس، وزيادة على ذلك يلقنونهم شعائر العبادة ككيفية الوضوء وأداء الصلوات الخمسة والتشديد عليهم من أجل تعلمها[27]، ومن أجل ذلك أكد العلماء على عدم تعنيف وضرب الناشئة ضربا مبرحا حتى لا ينعكس ذلك سلبا على تحصيلهم العلمي، وحتى لا ينفروا من الكتاب فيضيعون بذلك فرصة حفظ القرآن في صباهم وهو السن المناسب الذي يكون فيها ذهن الطفل خاليا، وأكثر إقبالا على استقبال المعلومات وحفظها[28].

---

[24]-زيني بن طلال بن حامد الحازمي، النقد العلمي عند علماء المسلمين في العلوم التجريبية في المشرق الإسلامي من منتصف القرن(2هـ/8م)إلى نهاية القرن(7هـ/13م)، بحث مقدم لنيل درجة العالمية العالية(الدكتوراه)في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى، 1426هـ/2006م، ص13-14.

[25]-بن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، بيروت، دار الشرق العربي، طبعة جديدة منقحة، 1425هـ/2004م، ص529، بوشقيف محمد، تطور العلوم بالمغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(14م-15م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 1431هـ-1432هـ/2010م-2011، ص71.

[26]-بلعرج عبد الرحمان، علاقات دول المغرب الإسلامي بدول المماليك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/13م-15م، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ، تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة تلمسان، 1433هـ-1434هـ/2012م-2013م. ص101.

[27]-حاجيات عبد الحميد، أبو حمو موسى الزياني(حياته وآثاره)، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م، ص30.

[28]-بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص71-72، محمد عادل عبد العزيز، التربية الإسلامية في المغرب، أصولها المشرقية وتأثيراتها الأندلسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987م، ص ص08-12.

[29]-ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، المصدر السابق، ص531-532

-مرحلة التعليم الثانوي والعالي: بعد أن ينهي التلميذ دراسته وتحصيله العلمي، تأتي مرحلة التعليم الثانوي والعالي وهما طورين متداخلين حيث يطرق طلبة العلم موادا عديدة أبرزها؛ تفسير القرآن ودراسة الفقه واللغة والأدب[29]، وهذا في الطور الثانوي مما يمكنهم من التهيؤ للانتقال إلى الطور العالي، بحيث يسمح لهم بلوغ مستوى علمي راقي والإلمام بأمور دينهم ومختلف العلوم الدينية واللغوية والعقلية[30]، وفي ذات السياق يعد الانتقال إلى مرحلة التعليم العالي انتقالا من التعليم العام إلى التعليم المتخصص مع الحرية الكاملة للطلبة في اختيار المواد الدراسية، وهم غير مقيدين بمقرر دراسي سنوي، لأنه لا توجد وصاية أو سلطة تفرض عليه برنامجا محددا، وتراقب تنفيذ وتنظيم الامتحانات الفصلية والسنوية، وذلك حسب ميولاتهم وطاقاتهم وإمكانياتهم الفكرية، ويتتلمذون على الأساتذة الذين يثقون فيهم وفي كفاءاتهم[31]، وعليه يدرس الطلبة في التعليم العالي العلوم الدينية يقرؤون على الأساتذة تفسير القرآن الكريم ويطلعون على علومه من قراءات ورسم وغيرها، بالإضافة إلى علوم الحديث والفقه المالكي ابتداء بالمختصرات كمختصر خليل وشرح ابن الحاجب ثم أمهات الكتب كالموطأ والمدونة والرسالة وغيرها، ويعرجون إلى علم التوحيد مثل: مؤلفات الجويني والأشعري، وكذلك علوم اللغة حيث يدرسون اللغة العربية وآدابها، وعلم الفرائض ويعرجون على العلوم العقلية فيطرقون الحساب والهندسة والفلك والمنطق وغيرها من العلوم بمزيد من التعمق والتحليل[32]،

-أثر الوسطية في كيفيات التدريس وطرقه: إن الهدف المبتغى للدرس أن يكتسب الطلبة مزيدا من العلم ولو بالطرق التقليدية المتواترة ضمن النسق العام الذي طبع نظام التعليم في العالم الإسلامي[33]، وعليه تباينت كيفية التدريس وطرقه من طور إلى آخر ومن مدرس إلى آخر، وعادة ما يستفتح الدرس بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم، وبعد انتهاء القارئ من تلاوته يدعو الشيخ المدرس لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويسمي الله تعالى ويحمده ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يشرع في إلقاء الدرس وفق الطرق التالية[34]:

-طريقة السماع: هي أن يقرأ الأستاذ المدرس من كتابه على الطلبة، أو من ذاكرته وسواء أملي عليه أم لم يمل، وقد يكون السماع أيضا بأن يقرأ الطالب من كتاب الأستاذ أو إحدى نسخه بحضور الأستاذ المدرس، وهذا ما يسمى "العرض"، ولكن بعض العلماء لا يجذ طريقة السماع أو العرض خشية أن يكون الطلبة غير

---

[30] -حاجيات عبد الحميد، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان-مجلة الأصالة، العدد26، 1975م، الجزائر، ص138

[31] -(-، -)، أبو حمو...، المرجع السابق، ص35، محمد عادل عبد العزيز، المرجع السابق، ص11، بوزيدي أحمد، المرجع السابق، ص71.

[31] -فيلالي عبد العزيز، المرجع السابق، ج2، ص347.

[32] -حاجيات عبد الحميد، المرجع السابق، ص138.

[33] -خرماش محمد، المرجع السابق، ص122.

[34] -بن خيرة نجيب، المرجع السابق، ص189.

متنبهين لما يقرأ عليهم[35]، وهذه الطريقة متعلقة بالحديث النبوي الشريف حيث يعرفها القاضي عياض بقوله:"...الضرب الأول السماع من لفظ الشيخ وهو منقسم إلى إملاء وتحديث، وسواء كان من حفظه أو القراءة من كتابه، وهو أرفع درجات أنواع الرواية عند الأكثرين..."[36].

-طريقة الإملاء والإلقاء: انتهجت هذه الطريقة في الطور الأول من التعليم وذلك في الكتاتيب[37]، وقد استحسنت هذه الطريقة كثيرا عند من يأخذون بطريقة السماع، حيث يملي الأستاذ المدرس من كتابه أو من حفظه، على جموع الطلبة في المسجد أو المدرسة، وعندما يكون العدد كبيرا يستعين الأستاذ المدرس بالمستملين أو المعيدين، وتكون مهمتهم إعادة ما يمليه الأستاذ ليسمعه الطلبة البعيدون منه وقد يتعدد المستملون حسب كثرة عدد الطلبة الحاضرين[38]، وقد اتبعت هذه الطريقة في تحفيظ القرآن الكريم حيث يملي المدرس آيات القرآن على الطلبة وهم يقيدونها في ألواحهم حتى يتعودون على كتابتها ورسمها.

-طريقة اختيار كتاب معين في صنف من أصناف العلوم وشرحه: وملخص هذه الطريقة أن يسند الأستاذ المدرس إلى أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور متداول، في المادة المزمع تلقينها وتحصيلها ودراستها، ثم يقوم الأستاذ المدرس بضبط متن النص وتحليله وشرحه فقرة فقرة ويقف عند الكلمات المبهمة، وهذا راجع إلى مدى تمكن الأستاذ من مادته بغزارة الحفظ وسعة اطلاعه، وبعدها يقيد الطلبة في دفاترهم ما تم شرحه وبسطه من قبل الأستاذ، فيسجلون بذلك ما يسترعي اهتمامهم[39]، وهذه الطريقة انتهجت في الطور العالي من التعليم[40].

-طريقة السؤال والجواب أو المحاورة: عن هذه الطريقة يقول ابن خلدون"...وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها..."[41]، حيث كان المبتغى من هذه الطريقة تعويد الطلبة على المحاورة والنقاش واستخدام عقولهم للوصول إلى الإثراء الفكري، ويكون الأستاذ فيها مجرد مدير للعملية التلقينية ومشرفا مباشرة على الحوار الذي يدور بينه وبين الطلبة[42]، وساعد على نجاعة هذه الطريقة استعمال المختصرات لتسهيل تلقين العلوم. كانت هذه الطرق الأكثر شيوعا وانتشارا، وتقليدا متعارفا عليه في عصر الدراسة، وسنرى دور العلماء في تطوير هذه الطرق وموقفهم منها، ومعها كيف دفعوا عجلة التعليم إلى التقدم. لقد بدا واضحا تأثر العلماء في العصر المريني بمبدأ الوسطية في

---

[35] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها، صبحي الصالح، المرجع السابق، ص88.
[36] -القاضي عياض، الإسماع-ص69، نقلا عن الصمدي خالد، المرجع السابق، ص141-142.
[37] -بلعرج عبد الرحمان، المرجع السابق، ص162، بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص73.
[38] -منير الدين أحمد، المرجع السابق، ص63.
[39] -المرجع نفسه، ص438.
[40] -بلعرج عبد الرحمان، المرجع السابق، ص163.
[41] -المقدمة، المصدر السابق، ص394.
[42] -فيلالي عبد العزيز، المرجع السابق، ج2، ص353.

كيفيات وطرائق التدريس، فهذه الأخيرة تم صياغتها وتطويرها وقولبتها بحسب مراحل التعليم التي يقطعها الطلبة، بحكم أنهم يتحصلون على مجموعة من الخدمات لمساعدتهم على فهم أنفسهم وإدراك المشكلات التي يعانون منها، حتى يبلغوا أقصى ما يستطيعون الوصول إليه من نمو وتكامل في شخصياتهم[43].

5-أثر الوسطية على جهود العلماء في دفع عجلة التعليم: إن العلماء والفقهاء بحكم مكانتهم العلمية في المجتمع سعوا إلى دفع عجلة التعليم والرفع من وتيرته وعصرنة مناهجه، بحكم أن التدريس ساهم بشكل فعال في رفع منزلتهم وكان المجال الحيوي لإبداعاتهم وإسهاماتهم في خدمة عقيدتهم والدّفاع عن مذهبهم وترسيخه ونشره[44]، وتلقينها لأفراد المجتمع صغارا وكبارا، فبذلوا جهدهم و استفرغوا وسعهم في سبيل تنشئة جيل يواصل مسيرة السلف في بناء حضارة إسلامية راقية.

-أثر الوسطية في بحث العلماء عن سند التعليم: كان ديدن العلماء في كل عصر العمل على البحث عن سند التعليم المتصل عن سلسلة من المشايخ والأساتذة ذوي الأسنان، وسعوا للمحافظة على هذا النسق والسند المتصل المتواتر وفق مسلكين هما: مسلك المشرق الإسلامي، ومسلك الأندلس[45]، حيث كان المشرق هو أصل العلوم التي انتقلت إلى المغرب عن طريق الرحلة في طلب العلم التي كان يقوم بها أهل المغرب حيث يقول ابن خلدون:"....وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه، بل أسواقه نافقة وبحوره، زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه..."[46]، فلا غرو أن طلبة المغرب يتلقون تعليمهم في كبرى الحواضر المغربية، ثم يرتحلون إلى المشرق لاكتساب مزيد من العلوم والنبوغ فيها، وكذلك تعلم طرق ومناهج جديد غير التي ألفوها في المغرب، فلا يصنف أحدهم في خانة العلماء إلا إذا ارتحل إلى المشرق، وعليه فإن الفقهاء والعلماء في عصر الدراسة اضطلعوا بمهمة تتبع سند التعليم وأخذه من حواضره حيث"...بعد انقراض الدولة بمراكش، ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون، لعهد أواسط المائة السابعة فأدرك تلميذ ابن الخطيب، فأخذ عنهم، ولقن تعليمهم وحذق في العقليات، ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن..."[47]، لقد فتح القاضي أبو القاسم بن زيتون الطريق لعلماء المغرب الإسلامي، حيث سار على منواله أبو عبد الله بن شعيب الدكالي وأخذ على مشيخة مصر وعاد إلى مدينة تونس حاضرة الحفصيين[48]، وبعدها اتصل سند هذين العالمين إلى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وطلبته الذين قرؤوا عليه[49]، ومن إفريقية انتقل سند التعليم إلى حواضر المغرب الأوسط كبجاية وتلمسان حيث بلغ السند ابن الإمام الذي

---

[43] -عبد الله بن ناجي بن علي الجهني، المرجع السابق، ص228-229.

[44] -خطيف صابرة، المرجع السابق، ص259.

[45] -بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص78.

[46] -ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ص394.

[47] -المصدر نفسه، ص393.

[48] -المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[49] -المصدر نفسه.

بثه في طلبته وفق نمط متواتر بالرغم من قلة الطلبة الذين درسوا عليه[50]، أما حواضر المغرب الأقصى فيقول ابن خلدون عن سند التعليم فيها: "...وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم..."[51]، ولكن سند التعليم سينتقل إلى فاس خاصة بعد المجالس التي عقدها ونظمها سلاطين بني مرين وضمت علماء فاس وتلمسان وبجاية وتونس غرناطة، فانتقل إلى طلبة فاس الذين حافظوا على اتصال السند، ولعل القرب الشديد بين فاس وتلمسان جعل طرق التعليم متشابهة، وكان تبادل الخبرات بين العلماء له أبلغ الأثر في تبلور الملامح الأساسية لمناهج التعليم وأساليبه وتوحيدا على مستوى جميع حواضر المغرب الإسلامي. وعليه فإن العلماء الذين بحثوا عن سند التعليم من منابعه الأصلية، اعتمدوا في بحثهم على المنهج الوسطي المعتدل الذي انعكس على رحلاتهم وتجسد في مناظراتهم ورغبتهم في إعادة صناعة التعليم إلى بلاد المغرب الإسلامي بعد أن انقطعت عنه كما قال عبد الرحمان بن خلدون.

ولم يكن انقطاع السند العلمي من حواضر المغرب الأقصى مطلقا بل توجد استثناءات، كما يستشف من كلام المقري الذي بين أن انتهاء صناعة التعليم والتأليف في المغرب لشيخ الشيوخ العلماء في وقته ابن البناء المراكشي في جميع تصانيفه[52]، حيث يعود ذلك إلى "...براءة نسبه من البداوة وملكته في التصرف التي هي نتيجة تحصيله..."[53]، والظاهر أن ابن البناء المراكشي نقل هذا السند إلى طلبته الذين كان لهم باع كبير في تطور الحركة التعليمية والعلمية والتصنيفية، حتى لم ينقض النصف الأول من القرن الثامن الهجري إلا ونجد حشدا هائلا من العلماء النابغين الحاذقين في مختلف العلوم الدينية واللغوية والعقلية، ضمتهم المجالس العلمية السلطانية التي أقامها السلطانان أبو الحسن وأبو عنان في فاس وتلمسان وتونس، ساهمت بشكل فعال في الحفاظ على سند التعليم واستمراره في حواضر المغرب الإسلامي.

-أثر الوسطية على موقف العلماء من وضعية التعليم: سعى العلماء إلى الإصلاح من وضع التعليم لإدراكهم أهمية هذا الأمر، فهو كفيل باستمرار المجتمع والدولة، وإذا عم الجهل اختل كلاهما، لذا شددوا على شروط هامة ينبغي أن تتجسد في شخص الأستاذ والمعلم والمؤدب-زيادة على ما ذكرناه-بأن يكون"...وافر العلم غزيره في اختصاصه، مطلعا على أمهات الكتب والشروح والحواشي، وأن يكون صاحب خط جيد مليح سهل العبارة قادرا على الاستيلاء على المجالس بحسن حديثه وخفة روحه العلمية واحترام القواعد العلمية، وما تتطلبه من صرامة المنهج، مثل الحفظ والتثبت واليقظة والضبط والنقد والصدق والإنصاف، وهي صفات لا يخف دورها في الرقي بالمعارف والعلوم، فضلا عن اتصافه بصحة الرواية وعلو الإسناد واتصال السماع

[50] -المصدر نفسه.
[51] -المصدر نفسه، ص394.
[52] -بوزيدي أحمد، المرجع السابق، ص32.
[53] -المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق الدكتور علي عمر، ج3، طبعة خاصة، الجزائر، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011م، ص23.

خاصة في علوم الحديث والقراءات..."[54]، مدركين دور الأستاذ في السير الحسن للعملية التعليمية وأن تمكنه في العلوم أمر من الأهمية بمكان، إذ يساهم في صقل شخصية الطالب وتنميتها حتى يصير في زمرة العلماء، ثم أكدوا على ضرورة اتصال السند التعليمي كما قلنا خاصة في القراءات وعلوم الحديث والسيرة النبوية.

أما بخصوص حالة التعليم في عصر المريني وموقف العلماء منها فهذا راجع على حد تعبير ابن خلدون إلى"...اصطلاح كل إمام من الأئمة المشاهير في التعليم يختص به..."[55]، مما يجعل مواقفهم تتباين وتختلف حسب كل عالم ووفق المنهجية التي يراها أكثر توافقا لتدريس علم من العلوم، ولما طغت كثرة الحفظ إذ"...تجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة للتصرف في العلم والتعليم..."[56]، رحل كثير من العلماء إلى المشرق بحثا عن سند التعليم، وعن أساليب جديدة تخرج التعليم من هذه الحالة، وعملوا جميعا على نشرها، حيث أدخلوا بعض المواد الجديدة وأدمجوها في تلقين الناشئة كرواية الشعر والترتيل، وقواعد اللغة العربية وحفظها والحديث وتجويد الخط والكتابة، ووقوفهم على روايات القرآن ومختلف قراءاته، حتى يحصل للصبي ملكة في اللسان العربي[57]، على غرار ابني الإمام و الآبلي وابن مرزوق الخطيب والمقري الجد، وقد حز في نفس الكثير من العلماء خضوع التعليم لتحكم السلطة الحاكمة بإنشاء المدارس لتكوين أطر تسيرهم وفق مصلحتها الخاصة، بفرض مؤلفات بعينها لتدريسها للطلبة، لذا كان موقف العلماء من تدريس هذه المؤلفات بشكل عام مندرجا ضمن موقفهم من الحجر الذي فرضته السلطة على حرية التعليم وفق منطلقات كل أستاذ مدرس، ونعتقد أن موقفهم كان يتباين مع موقف السلطة الزمنية في أحيان كثيرة، إذ كان مبتغى السلطة هو التباهي لا أكثر[58]، وهذا ما نستنبطه من كلام السلطان أبي عنان للعالم الصرصري بقوله:"...كي تعلم ما عندك من العلم، وما عند الناس، وتعلم أن دار الغرب هي كعبة كل قاصد..."[59]، من ذلك أن العالم الفقيه محمد الآبلي قد وظف المنهج الوسطي لما رفض تدخل السلطة في سير العملية التعليمية ومقاصدها، من خلال إنشاء مؤسسات تخضع لها مباشرة وتعيين أساتذة يجسدون أهدافها وغاياتها، إذ أن الآبلي"...لا يرفض المؤسسة التعليمية في حد ذاتها، وإنما يرفض المنطلقات السياسية التي من أجلها بنيت هذه المدارس، لقد لاحظ أن السلطة المؤسسة للمدارس تخول لنفسها حق توجيهها، في حين يرى

---

[54] -فيلالي عبد العزيز، المرجع السابق، ج2، ص351.

[55] -المصدر السابق، ص393.

[56] -المصدر نفسه، ص394.

[51] -مكيوي محمد، العلاقات السياسية والفكرية المغاربية للدولة الزيانية منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول(633هـ-737هـ/1236-1337م، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الفنون، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1427هـ-1428هـ/2007م-2008م، ص133.

[58] -بوزيدي أحمد، المرجع السابق، ص34.

[59] -المقري، المصدر السابق، ص27-28.

أن طلب العلم منزه عن أهواء ذوي السلطان ما عدا سلطان العقل. إن غاية المدرسة لا تلبي الحاجات الآنية للسلطة بل أن تؤثر في المجتمع قصد البناء الحضاري..."[60]، فلا غرو أن الآبلي اعتبر المحور التربوي الذي يعد في برنامجه الحلقة المحورية المحركة لكل دواليب المشروع الحضاري، فهو الذي يمد المحاور السياسية والإدارية والاقتصادية بالعناصر البشرية الكفيلة بالتنفيذ المتقن؛ لذا رغب في تحرير التعليم من المراقبة التعسفية وعدم خضوعه إلى التنميط الناتج عن الغايات المفروضة من قبل السلطة[61]، وعليه فالتعليم المرفوض عند الآبلي هو الذي يهدف إلى تعميم مفاهيم معينة، وبث قوالب فكرية لا تعمل على إيقاظ الهمم بل تعود المتعلم على تنفيذ ما يأمر به[62].كما اعتبر العلماء أن الرحلة لطلب العلم ولقاء العلماء ومناظرتهم والقراءة عليهم وأخذ الإجازة عنهم، أمرا بالغ الأهمية في سير العملية التعليمية وأن إنشاء المدارس يؤدي إلى انعدام هذا النسق المتصل الذي يكون شخصية العالم، فيصبح خائر الهمة ضعيف الملكة قليل العلم، غير قادر على التأثير في طلبته بشدة إدراكه وحسن تعليمه وقوة بيانه. ومن هذا المنظور عمل العلماء على ضمان نجاعة وفعالية التعليم من خلال النقاط التي وقفوا عليها وعملوا على تحاشيها، وسعوا إلى الرفع من وتيرة العملية التعليمية وفق نمط منهجي متكامل يتفاعل فيه الأساتذة والطلبة، بحيث ينتج عنه جيل من طلبة العلم استحكمت قواه العلمية ونفذت بصيرته الدينية ومضت عزيمته العلمية ومشى في مجتمعه بانيا رحيبا قويا أمينا، وأضحت الوسطية تتجلى فيما يصنع العالم، وما ينتج الأديب وما يصوغ صاحب الفن، وصارت سندا لكلام المتكلم وفقه الفقيه وتصوف الصوفي، كما ربطت بين عناصر المعرفة وأخرجت مؤلفات ومصنفات جامعة للمعارف الطبيعية والرياضية والإنسانية مع الحقائق الاعتقادية، يتجانس فيها العلم مع الدين ويتساند العقلي مع النقلي[63].وعليه يمكن الاستئناس بقول عبد القاهر البغدادي في حديثنا عن الوسطية ومدى توظيفها من قبل علماء العصر المريني في تطوير نظام التعليم ومناهجه حيث يقول:"...اعلم أنه لا خصلة من الخصال التي تعد في المفاخر لأهل الإسلام من المعارف والعلوم وأنواع الاجتهادات، إلا ولأهل السنة والجماعة في ميدانها القدح المعلى، والسهم الأوفر، فدونك أئمة أصول الدين وعلماء الكلام من أهل السنة ..... وأما أئمة الفقه في عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم فقد ملأوا العالم علما، وليس بينهم من لا يناصر السنة والجماعة وهم أشهر من نار على علم ... وأما أئمة الحديث والإسناد فهم سائرون على هذا المهيع الرشيد ولا يوصم أحد منهم ببدعة وفي طبقاتهم كتب كثيرة خاصة تغني عن ذكر أسمائهم هنا، وآثارهم الخالدة لم تزل بأيدي حملة العلم مدى الدهر، وكذلك أئمة الإرشاد والتصوف كانوا على توالي القرون على هذا المنهج السديد في المعتقد، وكذلك جمهرة أهل النحو واللغة والأدب كانوا على معتقد أهل السنة ... وكذلك أئمة القراءة وحملة التفسير

[60] –مكيوي محمد، المرجع السابق، ص201.
[61] –نقادي سيدي محمد، المرجع السابق، ص201.
[62] –مكيوي محمد، المرجع السابق، ص202.
[63] –محمد عمارة، المرجع السابق، ص110–111.

بالرواية، وكذلك المفسرون بالدراية، وكذلك مشاهير علماء المغازي والسير والتواريخ ونقد الأخبار، وحملة الرواية من أهل السنة والجماعة، فيظهر بذلك أن جماع الفضل في العلوم في أهل السنة والجماعة"[64].

-أثر الوسطية على منهج العلماء في تطوير التعليم ومناهجه: كان التعليم ومازال جوهر الحياة البشرية وسر تطور الأمم ورقيها، وسبب المدنية والحضارة الإنسانية، لذا فإن العلماء ساهموا بشكل جدي في وضع منهج واضح يكفل السير الحسن لنظام التعليم ومناهجه ومراحله وطرقه، وعلى ضوء ما تم رصده من مادة علمية سنحاول تلمس منهج العلماء في تطور التعليم ومناهجه بتسليط الضوء على أحد العلماء النابغين الذي كان له دور كبير في هذا الجانب ألا وهو "الآبلي"؛ حيث استطاع أن يرسي لمنهج متكامل متضح المعالم يضمن تحقيق المقاصد الكبرى للتعليم، وفد بثه في طلبته الذين حذوا حذوه كالمقري وابني خلدون وابن مرزوق الخطيب وغيرهم، وعليه ستتعرف على الأنماط التي استخدمها الآبلي أثناء تعليمه.

لقد أيقن محمد الآبلي أن المعلم صاحب رسالة في المجتمع، وعليه السعي لتبليغها وتأديتها بشكل ناجح لجيله، ذلك أن هذه الرسالة من شأنها الحفاظ على استمرار شعلة العلم مشعة، ولتنفيذ مشروعه انصب اهتمامه على التعليم، فالتعليم في منظور العديد من العلماء المسلمين السابقين عنه واللاحقين به هو أنجع وسيلة لتأدية الرسالة المنوطة بالعلماء[65].لذا أدرك الآبلي أنه يجب معرفة واقع المجتمعات المغربية جيدا، حتى يتم هيكلة نظام التعليم وفق منظور يسمح بالتوفيق بين السلطات الحاكمة والمجتمعات، وذلك بتبني خطة تسعى إلى بناء الفكر وتحريره من سلطان التقليد، بتوحيد اللغة أولا، وبتوجيه اهتمامه إلى تكوين نخبوي رفيع، يؤدي إلى تخريج فئة ذات مستوى علمي راقي، تساهم بشكل فعال في تأطير أجهزة الدولة وتسييرها وفي ترقية مستويات التعليم بالمدارس، ويمكنها مستقبلا من أن تصير من الجماعة الضاغطة، متحدية بذلك العصبيات السائدة[66].

وانطلاقا من ذلك بدأ محمد الآبلي بتجسيد منهجه بعد أن درس معظم التصانيف التي اعتنت بتصنيف العلوم ومن بينها "آداب المعلم لابن سحنون" و"إحصاء العلوم للفارابي" و"الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين للقابسي " و"وصية لطالب الحكمة وتهذيب الخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه"، واستفاد منها في تلقينه لطلبة العلم حيث أشار كل من أبي عبد الله الشريف التلمساني وعبد الرحمان ابن خلدون إلى إتباع الآبلي خطة ابن مسكويه في طريقة المشافهة[67]، حيث يقول:"...من اتفق له في الصبا أن يربي على أدب الشريعة ويأخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعودها ثم ينظر الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البراهين ثم يتدرج في منازل العلوم فهو السعيد الكامل..."[68]، وقد أقر الآبلي على

---

[65]- البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، 2005، ص ص270-272.

[65] -مكيوي محمد، المرجع السابق، ص199.

[66] -نقادي سيدي محمد، المرجع السابق، ص222.

[67] -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[68] -ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعلاق، نقلا عن نقادي، المرجع نفسه، ص223.

ضوء ذلك المراحل الثلاث التي يتكون فيها الطلبة، حيث أن المرحلة الأولى والثانية تندرج ضمن مجال تعميم المعرفة لكل طالب، وأما المرحلة الأخيرة فهي حاسمة إذ يتم انتقاء الطلبة النابغين وهي تمس الخاصة من المتعلمين[69].أقر الآبلي المسار الأساسي المتواتر للمرحلة الأولى من التعليم ولم يضع خطة لذلك وهذا لاعتبارات عدة هي:

-أنها تخدم السلطات الحاكمة في تعميم اللغة العربية في كامل أرجاء المغرب الإسلامي.

-أن هذا البرنامج يخدم على الأقل خطة الآبلي لأنه يمكن الناشئة من اكتساب رصيد معرفي يمكنهم من الانتقال إلى المرحلة الثانية.

-الاعتماد على طريقة التلقين والحفظ الصم.

-أن الآبلي آثر عدم التدخل في النسق العام الذي يجسد هذه المرحلة، لأن المساس به مساس بعناصر تعد من الثوابت لدى الحكام[70].

وفي السياق ذاته اعتمد الآبلي في منهجه التعليمي على مستويين للتبليغ: منهجية خاصة بالحلقة ومنهجية خاصة بالمشافهة، فالأولى موجهة للعامة من المتعلمين والثانية تستخدم عند توجيه الخطاب للنوابغ من المتعلمين[71]، أما تعليم العامة فيبدأ بعد الانتقال من مرحلة الكتاب إلى المدرسة حيث يكون عمر الطالب اثنا عشر سنة، يسعى من خلاله الآبلي إلى تلمس مستوى الطالب من خلال الكفاءات التالية:

-امتلاك آلية التفكير والقدرة على التعبير والتواصل اللغوي، ومعرفة العلوم الرياضية[72].

-الإلمام بالأصول والفروع أي الدراية الكاملة بالعقيدة والفقه.

-معرفة الحديث والسيرة النبوية والتاريخ.

-الوعي بواقع المحيط الاجتماعي والسياسي[73].

لذا راهن الآبلي على هذه المرحلة واعتبرها حاسمة في تبلور فكر الطالب، وأكد أن الأصل الحقيقي في التعلم يكمن في الفهم، ولا يحصل عادة من الكتب بشكل مباشر في هذه الفترة، بحكم فقدان الطالب آلية التحكم في الفهم التي تهيئه لاكتساب القدرة على التفكير السليم[74]، فالمنطق في نظر الآبلي "يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة والمعلومة"[75]، وأنه وسيلة لا غاية، أي وسيلة منهجية تيسر فهم وإدراك ماهية الأمور وتعمل على تخلص عقل مستعمله من تأثير الحس والأهواء. فالمنطق كأداة

---

69 -نقادي سيدي محمد، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

70 -نقادي سيدي محمد، المرجع السابق، ص207.

71 -مكيوي محمد، المرجع السابق، ص199.

72 -نقادي سيدي محمد، المرجع نفسه، ص208.

73 -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

74 -المرجع نفسه.

75 -ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ص463

منهجية يساعد الطالب ويدفع به لاستعمال قدراته العقلية ويزيده ثقة بنفسه ويشجعه على بناء نسقه الفكري[76].

6-مكانة الوسطية في تصنيف العلوم في العصر المريني: إن نمط تصنيف العلوم في العصر المريني ينطلق من التراكم الهائل للمعارف المتواترة، التي بلغت أوجها في هذا العصر، جاءت لتبرز لنا مدى التفاعل الذي أضحت بلاد المغرب الإسلامي تشهده وتهيئها لأخذ زمام المبادرة، وإقرار تصنيف ينبثق من هذه البلاد، يجسد دور أقطاب الفكر المغربي إسهامهم بوضع تصانيف تجمع العلوم النقلية والعقلية في ترتيب منطقي متناسق يبرز المكانة التي أصبح يضطلع بها علماء المغرب الإسلامي في بناء الفكر الإسلامي، ولذا فإن جهود العلماء في هذا المضمار جاءت مكملة لجهودهم في دفع عجلة التعليم، حتى يمكنهم الوصول إلى بغيتهم وإشاعة العلم والمعرفة في أوساط العامة كل على حسب نبوغه في أحد العلوم، لذا فالظاهر أن الأساس المتبع في التصنيف إنما يرجع إلى المدى الكبير الذي يصله العالم من حيث سعة المعرفة، والتعمق فيها، والبحث والمفاوضة[77].فحققوا بذلك نموذجا رائعا للحرص على المعرفة والعلم، انطلاقا من وعيهم بأهمية العلوم التي تحتاجها الأمة أفرادا وجماعات، وتجسد ذلك في: الوسطية في التكامل المعرفي في التحصيل، والوسطية في التكامل المعرفي في التأليف، وأيضا الوسطية في التكامل المعرفي في التقويم، وكذلك الوسطية في التكامل المعرفي في المنهج، وأخيرا الوسطية في التكامل المعرفي على مستوى الأفراد والجماعات، والأمثلة كثيرة لنماذج من علماء حققوا بفضل الوسطية هذه العناصر التكاملية في مجموعها: وخاصة: التحصيل والتأليف والمنهج. وأما التكامل المعرفي على المستوى الجماعي، فقد حققه مجموع العلماء الذين أيقنوا بأن التخصص ضروري في علم من العلوم، مع التحصيل التكاملي القاعدي المستمد من التركيز على علوم القرآن والسنة، وبعدها يأتي التخصص المرغوب فيه من طالب العلم[78]، وقد تفطن علماء العصر المريني إلى إشكالية معرفية هامة تتلخص في عجز الإنسان عن إدراك كل العلوم والمعارف والإلمام تحصيلا واستيعابا، وإن أثبتوا وجوب الإلمام بأصول المعرفة وهما: الوحيين؛ الكتاب والسنة، ومع ذلك فقد كانت للكثيرين منهم همم عالية في التحصيل والتأليف، وبرز في العصر المريني عدد كبير منهم تميزوا بالتأليف الموسوعي، الدال على تكامل المعارف وتداخلها، داخل اختصاص واحد، وعدة اختصاصات. كما فرقوا بين التكامل المعرفي في مرحلة التحصيل والتلقي، وبين التفرغ لعلم واحد؛ يبذل فيه الوسع والجهد، ويتقن استيعابا وتعليما وتصنيفا[79]، ولذلك سوف نتطرق إلى شكل التلقين الذي يتلقاه الطالب وعلى ضوئه سنتعرف على نمط تصنيف العلوم في عصر الدراسة من خلال تسليط

---

[76] -نقادي سيدي محمد، المرجع السابق، ص209.

[88] -قريان عبد الجليل، التلاقح العلمي بين حاضرتي بجاية وتلمسان في العصر الوسيط-قراءة تاريخية1-مجلة عصور الجديدة، العدد10، جويلية2014، إصدارات مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران، ص158.

[89] -عقيلة حسين، التكامل المعرفي في المنظومة التعليمية الجامعية(مقاربة تأصيلية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها)، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، العدد04، 1433ه/2012م، إصدارات مخبر الشريعة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر(01)، ص157.

[79] -المرجع نفسه، ص159-160.

الضوء على العلوم التي تلقاها عبد الرحمان ابن خلدون عن العلماء الذين صحبوا السلطان أبا الحسن إلى إفريقية، حيث يسرد لنا ذلك بقوله:"...إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن سعد بن نزال الأنصاري.....وبعد أن استظهرت القرآن العظيم عن حفظي، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفرادا وجمعا...وعرضت عليه رحمه الله قصيدة الشاطبي اللامية في القراءات في الرسم، ...وعرضت عليه كتاب التفسير لأحاديث الموطأ لابن عبد البر حذا به حذو كتابه التمهيد على الموطأ، مقتصرا على الأحاديث فقط...ودرست عليه كتبا جمة مثل كتاب التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الخطيب في الفقه ولم أكملها بالحفظ، وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي..."[80]، ثم يواصل ابن خلدون حديثه عن مشواره الدراسي بحفظ الشعر حيث حفظ كتب الأشعار الستة، والحماسة للأعلم وشعر حبيب وطائفة من شعر المتنبي، ومن أشعار كتاب الأغاني[81]، وبعدها عرج على دراسة الحديث وعلومه حيث أخذ بالسماع صحيح مسلم وكتاب الموطأ من أوله إلى آخره، وبعضا من الكتب الخمس[82]، ثم طرق علم الفقه إذ يقول:"...وأخذت الفقه بتونس من جماعة...وقرأت عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البراذعي، مختصر المدونة، وكتاب المالكية...وأفدت منه وسمعت عليه كتاب الموطأ للإمام مالك..."[83]، وأخذ سماعا وإجازة كتاب الموطأ والسير لابن إسحاق وكتاب ابن الصلاح في الحديث، وأخذ العلوم العقلية بما فيها المنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية[84]، ثم يواصل الكلام حيث يقول:"...ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكبا على تحصيل العلم، حريصا على اقتناء الفضائل، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله، ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الآبلي وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدوت بعض الشيء..."[85]، لقد ساق لنا ابن خلدون أبرز العلوم التي تلقاها على المشايخ سواء في إفريقية أو الذين صحبوا السلطان أبا الحسن المريني، وهذا ما جعله يضع تصنيفا للعلوم يكون بمثابة خاتمة لمجموع تصانيف العلوم في الفكر الإسلامي المغربي، وأبرز من خلاله طبيعة التصنيف ونمطه في عصر الدراسة، وسنحاول أن نقيم منهج ابن خلدون في بتصنيفه للعلوم؛ بحيث يفرق ابن خلدون بين نوعين من العلوم، "علوم مقصودة بالذات" كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والطبيعيات والإلهيات[86]، وهذه لا حرج من التوسع والتعمق فيها وبسط المسائل واستكشاف الأدلة والأنظار، فإن ذلك

---

[80] -التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عارضه بأصوله وعلق حواشيه محمد بن تاويت الطنجي، ط1، الجزائر، 2007، ص ص15-17.

[81] -المصدر نفسه، ص17-18.

[82] -المصدر نفسه، ص18.

[83] -المصدر نفسه، ص19.

[84] -المصدر نفسه، ص22.

[85] -المصدر نفسه، ص23 وما بعدها.

[86] -مرحبا محمد عبد الرحمان، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب-تقديم جورج صليبا، ط3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1981، ص228.

يزيد طالبها تمكنا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة[87]، و"علوم هي وسيلة آلية لهذه العلوم" كالعربية والحساب وغيرهما للشرعيات، وكالمنطق للفلسفة وأصول الفقه[88]، فلا يجب التوسع فيها ولا التعمق لأن دورها هو مساعدة الطالب على دراسة العلوم المقصودة بالذات، فالإقبال عليها كثيرا هو هدر للوقت دون جدوى وتقصير في حق العلوم التي هي مهمة للمتعلم[89]، وانطلاقا من ذلك وضع ابن خلدون تصنيفا قسم فيه العلوم إلى قسمين أساسيين هما العلوم العقلية و النقلية[90]، فالأولى سبيلها العقل والحواس والثانية مصدرها الوحي؛ أي أن العلوم العقلية تدرك باستخدام الإنسان لفكره وإعماله لعقله، حيث يهتدي إلى موضوعاتها ومسائلها ويتجه إلى براهينها ووجوه تعليمها وطرق تلقينها، أما العلوم النقلية فهي عبارة عن نقول يقتبسها الإنسان من أصلها أي عمن وضعها وأصلها، وتتواتر جيلا عن جيل، فأساسها خبر عن الشارع ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول[91].والعلوم العقلية خمسة هي:

1-علم المنطق 2-علم الطبيعة(ويلحق به الطب والفلاحة والكيمياء) 3-علوم التعاليم وهي علم العدد والهندسة والمساحة والمناظر والموسيقى وعلم الهيئة 4-الإلهيات أو علم ما وراء الطبيعة 5-السحر والشعوذة[92].

أما العلوم النقلية فهي ستة:1-القرآن الكريم (ويلحق به علم التفسير وعلم القراءات) 2-الحديث 3-الفقه(ويلحق به علم الفرائض وعلم أصول الفقه) 4-علم الكلام 5-علم التصوف 6-علم تعبير الرؤيا[93].

هناك العديد من الملاحظات أوردها علماء التصنيف المعرفي لتقييم تصنيف ابن خلدون للعلوم منها[94]:

-صاغ خطة التصنيف بشكل عام يجعل أي أمة تتبعها، ويتضح ذلك من نظرته للعلوم النقلية التي يرى بأنه بالرغم من اختصاصها بالأمة الإسلامية، إلا أن كل أمة لابد فيها من مثل هذه العلوم الدينية والعلوم اللسانية كل حسب ملته[95].

-قام بتغيير مراتب بعض العلوم مقارنة بالمصنفين الآخرين للعلوم، وخصوصا علم تعبير الرؤيا الذي أدرجه ضمن العلوم النقلية مستندا إلى رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام وأحاديث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن الرؤيا الصالحة، بينما هذا العلم مدرج ضمن العلوم العقلية في التصانيف الأخرى[96].

---

87 -ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة-المصدر السابق، ص528.

88 -المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

89 -مرحبا محمد عبد الرحمان، المرجع السابق، ص228.

90 -المرجع نفسه، ص158.

91 -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

92 -المرجع نفسه.

93 -المرجع نفسه.

94 -بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص109.

95 -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

96 -المرجع نفسه.

-يؤخذ على ابن خلدون في تصنيفه للعلوم عقلية ونقلية أنه لم يورد الفلسفة العملية فلا يشير إلى الأخلاق أو تدبير المنزل، كما لم يرتب علم التاريخ ضمن تصنيفه ولا السياسة ولا العمران ولا الجغرافيا، كما يؤخذ عليه إلحاقه علوما غير عقلية بالعلوم العقلية كالسحر والشعوذة والطلمسات وعلم الأسرار والحروف وعدها من فروعه وهذا من مفارقاته[97].

-أقر بنظرية هامة تقوم على صلة العلم بالحضارة صلة أساسية، أي بين ازدهار العلوم وكثرة العمران في نهاية حديثه عن العلوم العقلية، فهو يبين أنه قد لا يتقدم العلم إلا حينما تزدهر الحضارة وتكثر الصنائع[98].

وعليه يعتبر عبد الرحمان ابن خلدون الوحيد من علماء عصره الذين كانت لهم السابقة في تصنيف العلوم في العصر المريني وبلاد المغرب الإسلامي قاطبة، فقد انطلق من ذلك الكم المعرفي الهائل والزخم الفكري الذي شهده العصر المريني، حيث اختمرت شخصيته العلمية حينما درس على كبار العلماء والفقهاء، وأفاد من تصانيف العلوم التي قام بها العلماء قبله، وخرج بتصنيف للعلوم هو الوحيد في بلاد المغرب الإسلامي المعتمد لدى الباحثين مقارنة ببلاد المشرق الإسلامي، التي شهدت العديد من المصنفين في مجال العلوم نتيجة لسبقه في اتصال عمرانه واستهواء الحضارة فيه مما أدى إلى تفوق العلوم وازدهارها فيه[99]، لذا أفرد لهذه العلوم فصولا طويلة في كتابه المقدمة تتناسب كثيرا مع حجم انتشارها ودرجة شيوعها في المغرب الإسلامي، ذلك أنها حقيقة اجتماعية قائمة ومظهر من مظاهر الحياة في المجتمعات المختلفة، سواء اعترف بها العقل أو لم يعترف، وهذا ما دفع بابن خلدون إلى بسط الكلام حولها[100].لقد أفصح تصنيف العلوم الذي قام به ابن خلدون عن خبرة فائقة في التربية والتعليم وعلم النفس، جاءت كخاتمة للتجارب التي امتخضها هذا المفكر الفذ والرائد الألمعي العظيم، صاحب العبقرية الفذ السامقة والنظرة الناقدة والذهن النضيج والومضة التي لا تجود كثير بمثلها الدهور والآباد[101].

-أثر الوسطية في العلوم المُدرَّسة والكتب الأكثر رواجا: إن الحديث عن العلوم المدرسة والكتب الأكثر رواجا يستدعي القول أن الحياة العلمية في عصر الدراسة، زخرت بمجموعة من العلوم النقلية والعقلية التي كمل تأصيلها وتقعيدها وهيكلة أركانها، لذا كان تدريسها يزود الحركة الفكرية بوابل من المعرفة، وأضحت فاس بذلك حاضرة كبرى من حواضر العلم في العالم الإسلامي[102]، إن العلوم المدرّسة تكشف عن طبيعة التطور الذي عرفته هذه العلوم، ومدى التأثير الذي بلغته، حيث ينعكس ذلك على طبيعة التأليف، وعن مستويات التلقين والعلماء المتخصصين، لقد غلبت العلوم الدينية في عصر الدراسة وشاعت على نطاق واسع،

---

97 -مرحبا محمد عبد الرحمان، المرجع السابق، ص159.

98 -بوشقيف محمد، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

99 -المرجع نفسه، ص109-110.

100 -مرحبا محمد عبد الرحمان، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

101 -المرجع نفسه، ص229.

102 -قريان عبد الجليل، المرجع السابق، ص237.

ومرد ذلك إلى طبيعة هذا العصر الذي تفوقت فيه النقول التي أضحت رافدا لا يمكن الاستغناء عنه وأهم ما يميز الحركة الفكرية فيه[103]، وحري بنا أن نشير أن العلوم الدينية كانت في المقام الأول من بين اهتمامات العلماء وطلبة العلم[104]، خاصة بعد عودة مكانة المذهب المالكي إلى سابق عهده ومعه مكانة علمائه، وعلى ضوء ذلك سيكون لها أبلغ الأثر على تسارع تلقين العلوم الدينية بوتيرة متواصلة، بحكم أن الدارس لهذه العلوم له الحق في التطلع لمناصب الدولة كالقضاء والخطابة والحسبة وإمامة الصلوات وغيرها، فأضحت العلوم الدينية مطمح كل طالب وحقلا خصبا للتأليف والإبداع بحيث أن"...هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها، في هذه الملة ما لا مزيد عليه، وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا شيء فوقها، وهذبت الاصطلاحات ورتبت الفنون، فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتنميق. وكان لكل فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم..."[105]، لذا اتبع التدرج في تدريس العلوم الدينية بدءا ب:

-القراءات والتفسير، والحديث وعلومه والسيرة، والفقه وأصوله، والفرائض والتصوف، وعلم الكلام (أصول الدين)، ثم تأتي بعد العلوم الدينية العلوم اللغوية التي هي ضرورية لفهم واستيعاب أمور الدين واستنباط الأحكام التشريعية وتأصيلها وتقعيدها، ومرد ذلك للصلة الوثيقة بين العلوم اللغوية وعلمي القران الكريم والحديث[106]، وتسمى كذلك علوم اللسان العربي وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، وفي ذلك يقول ابن خلدون:"...ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة..."[107]، لقد اتضح جليا عناية العلماء بعلوم اللسان العربي واهتمامهم بها، فهي سبيل النبوغ والتفوق للطلبة، ودافع لهم لمواصلة الدراسة وتولي المناصب خاصة الخطابة، فقد أكدوا على هذا المعطى، ولا ننسى التأليف والتصنيف لا يحسنها إلا من كان ضليعا في اللغة، ثم نعرج على العلوم العقلية التي لها دور كبير في صقل شخصية طالب العلم كما تجعله يتطلع إلى آفاق واسعة، إذ تنطبق على العلوم التي يقوم النظر فيها على العقل وحده[108]، وتنقسم إلى أربعة علوم هي: المنطق، العلوم الطبيعية، العلوم الإلهية، التعاليم، وفي السياق نفسه يوجد تكامل بين العلوم النقلية(الدينية واللغوية) والعلوم العقلية إذ"...ثمة علاقة ارتباط وظيفية بين بعض العلوم النقلية والعقلية، مثل علم الحساب والجبر والمقابلة مع علم الفرائض، وكذلك بين علم الفقه وعلم الهيئة وبين المنطق وعلم الأصول، فإذا كان علم الفرائض يحتاج إلى

---

[103] -المرجع نفسه، ص238.

[129] -بوعياد محمود، العلم والثقافة بالمغرب الأوسط في القرن 9ه/15م(العلوم والكتب الأكثر تداولا)، مجلة الدراسات الإسلامية، العدد01، يصدرها المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، ربيع الثاني 1423ه/جوان2002م، ص111.

[105] -ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، المصدر السابق، ص398.

[106] -بوشقيف محمد، المرجع السابق، ص176.

[107] -المصدر نفسه، ص537-538.

[108] -خطيف صابرة، المرجع السابق، ص333.

العمليات الحسابية لتحديد أنصبة الورثة بدقة، فإن الصلاة والصوم والحج تحتاج إلى علم الهيئة في تحديد أوقاتها، وأصبحت هذه العلوم العقلية في مستوى العلوم الشرعية، بل علوما شرعية خالصة، لأن الأخيرة لا تتحقق إلا بها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب..."[109]، وبهذا التسلسل والترتيب للعلوم تكتمل شخصية الطالب العلمية، حيث خلال دراسته عبر المراحل الثلاث يكون قد نهل من جميع أصناف العلوم النقلية والعقلية، فيتصدر للتأليف في عدد منها، ولعل هذا هو السر في ذلك التأليف العلمي الهائل الذي يشكل رصيد الحضارة العربية الإسلامية، إذ يعد النظام التعليمي الإسلامي بمثابة الديناميكية الدافعة لهذا التأليف الذي سنفصل فيه، فموسوعية العلماء كانت نتيجة حتمية لهذا النظام، فتجد العالم يوصف بالعلامة الفقيه الأصولي المحدث المتكلم النحوي الرياضي، وهذا دليل على طبيعة التآليف التي صنفها وكذلك تدريسه لهذه العلوم، لذا سنحاول أن نسلط الضوء على أهم المقررات الدراسية التي اعتمدت في تلقين هذه العلوم وفق الترتيب المذكور آنفا، ونتعرف من خلالها على مدى مساهمة هذه المقررات في توحيد مناهج التعليم في عصر المرينيين، كما تجدر الإشارة أن العلماء المدرسين فضلوا الكتب التي ألفها علماء المغرب والأندلس، وذلك انطلاقا من النبوغ الذي أضحى المغرب الإسلامي يشهده على شاكلة الأمصار الإسلامية الأخرى في جميع المجالات الاجتماعية والفنية والأدبية والعمرانية والفكرية التي أفصحت عنها كتب التاريخ والأدب والرحلات[110].وفيما يلي ذكر لأكثر الكتب رواجا في عصر المريني:

-التفسير: كتاب "الكشاف" لمحمود جار الله الزمخشري المعتزلي[111].

-القراءات والرسم: ومن كتب القراءات ورسم القرآن الكريم نذكر "حرز الأماني ووجه التهاني" وهو الكتب المعروف باسم "الشاطبية" وهو من نظم أبي القاسم الرعيني الشاطبي لكتاب "التيسير في القراءات السبع" لأبي عمرو الداني، والكتاب الثاني هو "الخراز" أو "ضبط الخراز" وهو عنوان مختصر ل:"مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن "لمحمد الشريشي الشهير بالخراز"[112].

-علم الحديث: كتاب "صحيح البخاري"، وكذلك كتاب "صحيح مسلم"[113]، "الموطأ" أي كتاب "التقصي لأحاديث الموطأ" لابن عبد البر[114]، وكتاب "الأحكام الصغرى" لعبد الحق و"سيرة ابن إسحاق" و"الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى"[115].

---

[109] -قريان عبد الجليل، المرجع السابق، ص244.

[110] -محمود بوعياد، المرجع السابق، ص122.

[111] -ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ص401.

[112] -المصدر نفسه، ص:399، بوعياد محمود، المرجع السابق، ص:116.

[113] -المصدر نفسه، ص:404.

[114] -خطيف صابرة، المرجع السابق، ص268.

[115]- التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، ط1، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، 1398ه/1989م، ص226.[115]

-علم الكلام(أصول الدين):كتاب "الاقتصاد في الاعتقاد" للغزالي[116]، وكتاب "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين" لابن الخطيب[117].

-علم أصول الفقه: كتاب "مختصر ابن الحاجب في الأصول"[118].

-علم الخلاف: كتاب "مقاصد الفلاسفة" للغزالي[119].

-علم الجدل: كتاب "المقترح" للبيروني[120].

-علم الفقه: كتاب "المدونة" لعبد السلام بن سعيد التنوخي، "الموطأ"[121]، "الرسالة "لابن أبي زيد القيرواني، "التهذيب" للبراذعي، "مختصر ابن الحاجب"[122].

-النحو: "إيضاح الفارسي"[123].

-البيان: "الإيضاح والتلخيص" لجلال الدين القزويني[124].

-التصوف: "ميزان الغزالي"[125].

-علم المنطق: كتاب "جمل الخونجي" و"المطالع للسراج الأرموي"[126].

-علم الحساب: كتاب "تلخيص أعمال الحساب" لأبي العباس أحمد بن البناء[127].

-علم الهندسة: "كتاب إقليدس"[128].

-علوم الطبيعة: "كتاب النحاة لابن سينا"[129].

نلاحظ الامتزاج بين كتب المشرق وكتب المغرب في التعليم في العصر المريني على ضوء ما توفر من مادة علمية، حيث تم رصد هذه الكتب وفق ترتيب العلوم، وكذلك وفقا لكثرة رواجها وإقبال العلماء عليها دون غيرها من الكتب، وعليه يمكن الولوج إلى أن العلوم المدرسة والكتب كانت موحدة في جميع المؤسسات التعليمية سواء المساجد أو المدارس أو الكتاتيب، مما وفر الفرص للطلبة من أن ينهلوا من جميعها بشكل متواصل.

---

116 -المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

117 -ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر نفسه، ص:424.

118 -المصدر نفسه، ص414، التنبكتي، المصدر نفسه.

119 -التنبكتي، المصدر نفسه.

120 - المصدر نفسه.

121 -المصدر نفسه، ص253.

122 -بوعياد محمود، المقال السابق، ص117.

123 -ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر السابق، ص410-411.

124 -التنبكتي، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

125 -ابن خلدون عبد الرحمان، المصدر نفسه، ص544.

126 -التنبكتي، المصدر نفسه، ص226.

127 -بوعياد محمود، المقال نفسه، ص120.

128 -التنبكتي، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

129 -المصدر نفسه.

وأخيرا أصبح أمام المؤلفين في العصور المتأخرة تراث ضخم من الكتب التي جمعت المعلومات الكثيرة، وأعجبوا بصبر أولئك المؤلفين على صعوبة العمل وطاقاتهم الجبارة، وانتهى معظم المتأخرين إلى أن مجال الجمع قد انقضى وانصرم، بل ذهب بعضهم إلى أن الإبداع في الفن والاجتهاد في الدين قد توقفا. فالتفتوا إلى هذه المعلومات ينسقونها وينظمونها في أبواب، ويقعدون ما فيها من قواعد، ويجمعون الشيء إلى مثله، يبسطون ما يحتاج إلى بسط، ويحذفون ما يرونه فضولا، وكان عاقبة ذلك ظهور عدد من الكتب المبوبة المرتبة والمنظمة[130].

-الخاتمة والتوصيات: من خلال ما سبق يمكن القول:

-أن نظام التعليم في العهد المريني ارتكز على مبدأ الوسطية في مناهجه وطرقه وتوجهاته.

-اعتبر العلماء في العصر المريني أن أفضل وسائل التعليم، هي اعتماد مبدأ الوسطية في تدريس المنظومات التعليمية والمتون العلمية التي تحتوي على زاد معرفي مهم في عملية التلقين والتحصيل العلمي.

-أدت الوسطية في العهد المريني، إلى انتشار حرية الرأي وتنوع الحوار والنقاش بين العلماء إلى طلبتهم في مختلف العلوم، إذ ساعدت على سهول التحصيل وسرعة الحفظ وكثرة العلوم واتساع مشاركة العلماء في العلوم النقلية والعقلية.

-أثرت الوسطية بشكل كبير على تصنيف العلوم، نظرا لإسهامها في دفع العلماء إلى طرق أبواب ومواضيع جديدة في التأليف والدليل العدد المعتبر للمؤلفات لبعض العلماء في هذا العهد، حيث ألفوا في عدد من العلوم النقلية والعقلية.

-ومن أهم التوصيات ما يلي:

-إعادة صياغة كتب التاريخ الجزائري مع التركيز حول دور الوسطية في بناء الحضارة العربية الإسلامية، في مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

-تزويد المكتبات الجامعية بالكتب التي تتبع تراجم علماء الجزائر وسيرهم، وتعنى بإبراز جهودهم في الدفاع عن مبدأ الوسطية.

-البحث عن المخطوطات الضائعة، والإنتاج العلمي المفقود للعلماء الجزائريين، والعمل على صيانته وتحقيقه وبعثه من جديد، ويضطلع بهذه المهمة فريق من الخبراء والباحثين المتخصصين.

-دعوة القائمين على صياغة الكتاب المدرسي والجامعي إلى تصحيح تاريخ العلم وعدم تجاهل جهود العلماء الجزائريين في هذا الجانب المهم.

-إعادة توصيف وتصنيف العلوم وفق المنهج الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان.

-فتح مشاريع بحث في الدراسات العليا، تتمحور حول دراسة جهود العلماء الجزائريين، في مختلف مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ومواصلة ذلك بعقد ندوات وملتقيات تسلط الضوء على هذه الجهود.

---

[130] -الصباغ محمد لطف ي، المناهج والأطر التأليفية في تراثنا، ط1، المكتب الإسلامي، 1405ه، ص101.